مقدمة

يندر أن يغامر كاتب بأن يربط مؤلفه بتواريخ معينة . فالكِتاب – فى الأغلب الأعم – يعيش سنوات – وربما أحقاب – بينما الأيام والأحداث تتوارى سريعا مع تدفق الزمن .

ذلك أننى عقب عودتى من مهرجان القُرين السادس والذى عقده – فى دولة الكويت – المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (فى الفترة بين ٣٠ أكتوبر – ١٨ نوفمبر ١٩٩٩) وجدت وسائل الإعلام – صحافة وتليفزيون – محلى وعالمى – تشير إلى احتفال رموز وقيادات العالم بسقوط حائط برلين، وحضر هذا الاحتفال – من بقوا على قيد الحياة – من القيادات الفاعلة التى ساهمت فى سقوط هذا الحائط، وكانت المناسبة هى مرور عشر سنوات على هدمه، وفى مقدمة من حضر الاحتفال فى برلين الرئيس جورج بوش، والذى كان امتدادا للرئيس ريجان والذى بدأ مشروع (غزو الفضاء)، فقام الاتحاد السوفيتى بمشاريع مماثلة جعلته، يلهث اقتصاديا وفنيا إلى أن تفكك، كما حضر الاجتماع الشخصية المحيرة ميخائيل جورباتشوف، والذى كان آخر رئيس للاتحاد السوفيتى والسكرتير العام للحزب الشيوعى لهذا الاتحاد الذى تفكك كقطع الحجارة عندما تتحلل المادة الأسمنتية الرابطة لها ، وكان مقدم جورباتشوف للحكم بشعبية عالمية منقطعة النظير، عندما أطلق

شعاراته بعبارات روسية صارت مشهورة وقتها فى كل العالم ولا زالت عالقة فى وجدانى وهى جلاسنوست أى الشفافية والمصارحة ثم البروسترويكا وتعنى الهدم بهدف إعادة البناء، وتوقع كثيرون أن ما أطلق من شعارات سيكون مقرونًا بسياسات تحقق هذه الشعارات، إذ بعملية الهدم تتم . ولكن قبل أن يعاد البناء فقد البناء التوازن وتفكك الاتحاد وعادت إلى كيانات مستقلة ، وما تبقى سُمى روسيا الاتحادية أو الكومنولث (وتعنى الثروة المشتركة) وحتى هذا الكيان أصابه التصدع فصار هذا الحدث البسيط وهو هدم حائط برلين وكأنه أكبر زلزال سياسى فى القرن العشرين .

وأدى كل ذلك إلى عالم مختلف يعج بالصراعات الداخلية والحروب الأهلية بين دول متجاورة فى مواقع كثيرة من العالم وهو موضوع هذا الكتاب .

وفى هذا الاحتفال بذكرى سقوط حائط برلين، كان ضيف الشرف الثالث والأهم هو المستشار كول، صاحب قرار توحيد ألمانيا الغربية مع الشرقية وجنى ثمار ما قام به (بخبث أو ذكاء) جورج بوش، وكل أجهزته الظاهرة والخفية وما قام به بسذاجة أو سوء حظ ميخائيل جورباتشوف الذى بزغ مثل الشهب امبراقة عبر الثمانينات ثم هوى سريعا مثل الشهب عندما تحترق وهى تدخل الغلاف الأرضى .

فسقوط حائط برلين عام ١٩٨٩ كان إذن نقطة تحول فى النصف الثانى من القرن العشرين، فقد انتهت الحرب الباردة، وبدأ حفل إلباس

الولايات المتحدة الأمريكية عباءة القطب الأول والرئيسى فى سياسات العالم وتبع ذلك ظهور حواريين يحملون لقب المفكرين والمبدعين ينظرون ويدعون لمفاهيم جديدة تبرر كراهية الآخر بإثارة عداوات قديمة وجروح تاريخية كانت قد اندملت منذ قرون .

ومن عجب أن يكون لبعض منهم تعليقاته على واقعة سقوط برلين . فقال أهمهم فرانسيس فوكوياما المفكر الأمريكى المعروف : «انتهى التاريخ ولم يعد أمام الإنسان سوى أن يضجر .. لأن لا أفق أمامه . إلا الديمقراطية السياسية والليبرالية الاقتصادية . فكل نظام آخر مصيره الانهيار» .

وقال آخر : «لقد سقط جدار ، فتوحدت مدينة توطئه لأن يعاد شطرى ألمانيا مرة أخرى بعد ما يزيد على ٤٠ عاما، مما مهد لأن تلعب ألمانيا دورا أكبر فى توحيد أوروبا» وكان لسقوط حائط برلين تداعيات أخرى كثيرة نقلت العالم كله إلى مرحلة جديدة أسموها بالنظام العالمى الجديد ولكن الجديد فيه أنه مملوء بالآلام والدم من خلال نزعات الكراهية ، حتى تصورنا أن الحرب الباردة كانت غطاء وهميا، فلما انقشع الغطاء ظهرت الثعابين والأفاعى الكامنة ومعها انفتحت جروح قديمة تثير معها كراهية الآخر، بسبب اختلاف العرق أى السلالة أو الدين أو المذهب وهى أمور كنا واهمين عندما تصورنا أن الصراع بين الشيوعية والرأسمالية قد أخفى أو أنهى الصراعات المختلفة السابقة لها، فظهرت تواريخ الحروب الصليبية، وغزو العرب لأسبانيا ثم استردادها .

وظهر تاريخ التتار والعثمانيين وسقوط القسطنطينية وفينا وكلها تواريخ قديمة سجلتها كتب صفراء لتدنس قلوب بيضاء. !

ثم تصادف فى ذات يوم الاحتفال بسقوط حائط برلين ومرور عشر سنوات على هذا الحدث الجلل الذى أدى إلى خلل، أن نشرت صحيفة «الحياة اللندنية» صباح الاثنين ٨ نوفمبر عام ١٩٩٩ خبر زيارة قداسة البابا يوحنا بولس الثانى - بابا روما - مدينة بتليسى عاصمة جمهورية جورجيا حيث رئيس الجمهورية هو إدوارد شيفر نادزه، وكلاهما من الرؤوس التى خططت - على نار هادئة - شكل النظام العالمى الجديد الذى نعيشه، ومن المفارقات أن قيادت الكنيسة الأرثوزكسية فى جورجيا أصبحت مناهضة للزيارة، فقد نظم بعض كهنة هذه الكنيسة صلاة قبل وصول بابا الفاتيكان للاحتجاج على مشروع القداس الاحتفالى الذى سيقيمه البابا بمشاركة الكاثوليكون إيليا فى أحد ساحات وسط تبليسى، وقال الأب الكسندر بولكفازده : «أننا هنا لحماية البلاد من الحطية الكاثوليكية».

* * *

وإذا كانت هذه هى مقدمة أو استهلال لمقدمة هذا الكتاب والظرف اللحظى لنشرد، فإن محتوى الكتاب هو أحد ثمار الندوة الثقافية لمهرجان القرين بالكويت كما ذكر سابقا إذ كان الموضوع الكلى للندوة هو «الثقافة وقضايا الحياة العربية المعاصرة» حيث قسم إلى عدة محاور، كان لكل محور ورقة رئيسية قدمها باحث عربى معروف ثم مع كل ورقة كان تعقيب أو تعليق أو نقد مقدم كتابه من باحث عربى آخر.

فى هذا الإطار الكلى ، كُلفت بأن أعد دراسة حول قضية المثقف العربى والآخر: قبول أم رفض أم لا مبالاة؟ وجاء حجم الدراسة أكبرمن المعتاد حيث قسمت الورقة إلى قسمين : الأول يقدم ما يمكن أن يطلق عليه عبارة «نظرة قبول الآخر» وقد أطلقت عليها توصيف أنها مقبولة أى مستساغة ويمكن أن يقتنع بها أى إنسان منصف غير متعصب مسبقا، وهذا هو سر أن قبلها الناس فى إطار عام ١٩٩٩، ولكننى أتمنى أن يزداد اقتناع الناس بها خلال عام ٢٠٠٠ فقد أعلنت اليونسكو أنه سيكون عام الحوار بين الحضارات .

غير أن الواقع المعاش يؤكد أن لكل منا كراهيته لآخر، ليس كأفراد ولكن كجماعات، وهى ظاهرة إنسانية واسعة الانتشار ولذا حاولنا أن نفسر لماذا يكره الناس بعضهم بعضها ثم نستطرد لنشرح أن لكل مجموعة بشرية «خصوصيتها الثقافية»، ويتم تشكيل وجدانها الجماعى من خلال آليات هى (الأسمنت) الثقافى وهو توجه إيجابى لا بأس به، ولكن الأزمة تبدأ عندما تبث (الكراهية) كجزء من استثارة الجماعة لزيادة تماسكها الداخلى وهنا مكمن الخطر وبداية لتداعيات قد توصل إلى حرب أهلية كما كان فى لبنان وكما لا زال قائما فى السودان .

أما الجزء الثانى من الورقة فهو فحص قضية (الآخر) بالنسبة للمثقف العربى، وهى تصنيفات كثيرة، توصلنا لأنه من الممكن بل من الواجب أن يكون له قبول فى حالات، كما يبرر الواقع أن هناك آخر يكون مرفوض، كما أن هناك آخر لا علاقة به ومن ثم حالة (اللامبالاة) . غير أن كل هذه الحالات أى الرفض والقبول واللامبالاة فى حالة حركة مستمرة وتتغير بتغير الظروف السياسية والمجتمعية والإقليمية والعالمية .

ثم يجيء ما هو أهم من الورقة المقدمة منى، هو تعقيب الأستاذ محمد صادق الحسيني، ولم أره - وحتى لم أر تعقيبه - إلا عندما ذهبت بالفعل إلى الكويت، ثم حضرت جلسات الندوة، وإذ بى أسعد أولا بقراءة التعليق الذى كتبه عندما قرأته في المساء ثم أسعدت بالشخص والإنسان والمفكر عندما رأيته فى اليوم التالى، فعرفت أنه من أصل عراقى ومن ثم يتحدث لعربية مثلنا تماما وقد ولد فى النجف وارتبط بالفكر الشيعى منذ نشأته ثم جدت ظروف جعلته يهاجر إلى إيران وظل يرتقى فى السلم الإعلامى الثقافى الشيعى كجزء من الثورة الإسلامية، حتى صار من لحمتها المستنيرة كمستشار لشئون الإعلام لوزير الثقافة الإيرانى وهو فى ذات الوقت ْى وزير الثقافة الذى حل مكان الرئيس خاتمى هو الناطق الرسمى بسم حكومة الرئيس محمد خاتمى رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ومن ثم فإن لتعقيبه نكهة ومذاقا خاصا بل وأهمية فكرية، لأنه نقد موضوعى من رجل ؤمثقف له رؤية ومدعم بكل النصوص والتراث الذى يؤيد وينقد نظرية قبول الآخر.

فى هذا الإطار وجدت من المناسب أن أضيف إلى مجمل الكتاب دراسة كان قد قدمها لى الأخ والصديق السيد/ الصادق المهدى وهو شخصية ثقافية وفكرية مرموقة، ليس لأنه كان رئيس وزراء السودان المنتخب عام ١٩٨٦، وليس لأنه رئيس حزب الأمة السودانى، ولكن لأنه يحمل لقب (صاحب العهد مع أنصار الله) وأنصار الله هم رجال حزب الأنصار أى المهدية ، ومن ثم فإن لرؤيته اعتبارا خاصا لذوى الرؤى فى الفكر والثقافة الإسلامية . وسيكون لنشر هذا النداء فى الظروف الحالية التى تمر بها السودان أهمية خاصة، لأنها تعنى انتقال الفكر المسيطر من توجه أصولى

للآخر إلى توجه آخر قابل للأخر ومن ثم فقد يكون بداية رائعة لنداء سحرى لحل مشاكل السودان المعقدة، وقد ينقذها من التفكك والانقسام أو التقسيم فى لحظة أخيرة حاسمة ..!

* * *

نشر المفكر الأمريكى صموئيل هانتجتون رؤيته أو نظريته التى تتنبأ أن الحقبة الحالية والمعاصرة والقادمة هى مرحلة (صدام الحضارات) ففى صفحة ٣٤٣ من الترجمة العربية جاء ما نصه : «فى عام ١٩٩١ كان بارن بوران يرى عدة أسباب لنشوب حرب مجتمعية باردة بين الغرب والإسلام تقف فيها أوروبا على خط المواجهة . هذا تطور له علاقة بالخصومة التاريخية بين المسيحية والإسلام» .

لقد نشرت النظرية فى أول الأمر فى مجلة فورن أفيرز فى صيف عام ١٩٩٣ ثم صدرت فى شكل مجلد تفصيلى عام ١٩٩٦ وترجم إلى العربية عام ١٩٩٨ بعنوان (صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى)، أقول، منذ أن قرأت هذه النظرية – ربما خلال عام ١٩٩٤ – عكفت على كتابة وجهة نظر بديلة نشرت عام ١٩٩٨ فى كتاب باسم (قبول الآخر) وقد وجد الكتاب قبولا واسعا بين المصريين، مما ساعد على دعم التآخى الوطنى الداخلى، لذلك فكرت فى أن أعالج القضية الأكبر وهى الكراهية المتبادلة بين الغرب والإسلام والتى تبدو تجلياتها واضحة فى أحداث متتالية وفى مواقع كثيرة، لذلك رحبت بنشر هذا الكتاب فى سلسلة اقرأ بهذه المنظومة التى تتكون من ثلاث دراسات – كما سبق الإشارة – لعل فى ذلك ما يخدم نزع فتيل الكراهية بين الغرب والإسلام .

أيها القارئ الكريم

إن الكراهية التى توصل الإنسان إلى القتل والإرهاب تبدأ فكرا، ومن هنا كانت أهمية التوجه الثقافى والحوار بين البشر المنتمين إلى ثقافات وحضارات ورؤى مختلفة، لأن أحدا منا - وكما ذكرت فى نظرية قبول الآخر - لم يختار لون بشرته أو ديانته أو مذهبه، وها نحن - كتّاب هذه الأوراق والدراسات المختلفة - قد عبرنا عن بعضا من وجه نظرنا، وستكتشف من خلالها أيها القارئ الكريم - أننا - نحن الثلاثة - لسنا متطابقين فى وجهات النظر، ولكننا قابلين لبعضنا البعض، ومن ثم نتحاور ونعرض رؤيتنا أمامكم صريحة شفافة .

لك الحق فى أن تختلف مع أى منا أو معنا كلنا ولكن الحوار هو السبيل إلى معرفة الآخر، وفهمه، لعلنا بكل ذلك نقلل من معاناة البشر فى الحروب الأهلية، فيحيا جيل قادم قابل للآخر بالفطرة، فيكون هذا الجيل القادم بالفعل هو بداية لغد أكثر إشراقا وهو الشعار الذى أكتب تحته كل مقالاتى وكتبى .

وعلى الله قصد السبيل

ميلاد حنا

القاهرة فى ١٢ ديسمبر ١٩٩٩